

الطفولة

في حياة



المعصوم

تأليف الفقير لعفو ربه
خالد بن عبد الرحمن الشايع

مصدر هذه المادة:

الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com



دار بلنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلم تزل سيرة نبينا محمد عليه السلام محلا لعناية أمة الإسلام جيلا بعد جيل، وقرنا بعد آخر، كما أنها لم تزل موردا عذبا ومعينا صافيا لاستلهاام الدروس والعبر في مختلف المجالات: عقيدة وشريعة ومنهجها وتربية وسلوكها، وكان من عناية العلماء بها ما هو معلوم ومشهود بما لا يشابه هذه السيرة سيرة أحد من الخلق على الإطلاق.

وفي هذا السياق أقدم هذه المقتطفات من بيت النبوة بما يظهر جوانب معينة من سيرة المعصوم عليه السلام مما يتصل ببيت النبوة الوارف. وفي هذه المجموعة التي بين يديك اقتطفت أربع مجموعات من كتابي الكبير "بيت النبوة" ونظمتها في هذه المجموعات الأربع:

- ١- الطفولة في حياة المعصوم عليه السلام.
- ٢- لمحات من حياة النبي عليه السلام مع بناته.
- ٣- لمحات من الحياة البيتية للنبي عليه السلام.
- ٤- لمحات من زواج المصطفى عليه السلام بأمهات المؤمنين.

وإني لأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه المجموعة، وأن يجعلها في ميزان حسناتي وحسنات والدي، وأسأله سبحانه أن يجعلها مدينة من مرضاته وسببا لدخول جناته. آمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

خالد بن عبد الرحمن الشايع

K_shaya4@maktoob.com

تحريرا في ٢٠/٦/١٤٢٢هـ

الرياض ١١٥٧٤

ص.ب/ ٥٧٢٤٢

* * *

صفحات من طفولة المعصوم عليه السلام

عندما نتوقف للبحث في طفولة المصطفى عليه السلام ، وبرغم قلة ما تم تدوينه ورصده بشأنها، مقارنة بمراحل حياته الأخرى، فإننا نجد أن هذه الطفولة قد امتزجت فيها صفحات من الابتلاء والأحزان والآلام بسبب فقد الأحبة، ولكن كان لهذا الإنسان الذي فقد أقرب نفسين إليه: والديه في وقت مبكر من حياته، كان له من العناية الربانية والحفظ الإلهي والإرهاصات ما يبين عظم شأن هذا القادم الجديد.... جنينا.... ثم طفلا، وما قبل ذلك وما بعده، وقد قال الله تعالى له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾^(١) أي: "بمراى منا، وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس"^(٢)، فقد كان الله تعالى يهيئه للرسالة الخاتمة والتي سيجمل لواءها ويتولى بلاغها.

بشارة الأنبياء ببعثة أفضلهم:

قال الله تعالى مخبرا عما دعا به رسوله موسى عليه السلام: ﴿وَإِذَا كُنَّا فِي الْبِلَادِ إِنَّا هَادُونَ عَلَىٰ آلِهَتِنَا لِما ضَلَّنا مِنْ قَبْلُ وَبِما كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدِّينَ﴾^(١) وأكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤٣٨/٧) ط دار طيبة.

وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذه صفة محمد عليه السلام في كتب الأنبياء، بشروا أمهم بيعته، وأمروهم بمتابعتة، ولم تنزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم. اهـ (٢).

وقال الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾﴾.

فيعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.

روى الإمام أحمد وغيره عن العرياض بن سارية السلمى — رضي الله عنه — قال: سمعت رسول الله عليه السلام يقول: «إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل (٤) في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم (٥)، وبشارة عيسى

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤٨٣/٣).

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

(٤) المراد بالمنجدل: الطريح الملقى على الأرض، قبل نفخ الروح فيه.

(٥) أشار بذلك إلى دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، كما قص الله في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل أنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

قومه^(١)، ورؤيا أُمِّي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام^(٢)، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم^(٣).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "المقصود من هذا الحديث أن نبوة النبي صلى الله عليه وآله كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حيا، وأن ذلك كان مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، وفسر "أم الكتاب" باللوح المحفوظ، وبالذكر، في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤) اهـ^(٥).

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
[سورة البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]، ولهذا امتن الله على المؤمنين ببعث هذا النبي فيهم على هذه الصفة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

- (١) وهي قول عيسى لقومه كما في آية سورة الصف المتقدمة، الآية: ٦.
(٢) هذا يحتمل أحد معنيين: إما الرؤية المنامية، وقد روي بكثرة أن آمنة بنت وهب رأت في أول حملها بالنبي صلى الله عليه وآله في المنام بأنها إذا ولدت يخرج منها نور تضيء له قصور الشام، والمعنى الثاني: أنه النور الحسي، حيث تكاثرت الروايات بأن أمة صلى الله عليه وآله آمنة بنت وهب لما وضعت خرج منها نور أضاء أرجاء المكان حتى بلغ النور والضياء قصور الشام. انظر: "لطائف المعارف" (ص ١٧١ - ١٧٣).
(٣) "المسند" (٤/١٢٨). "صحيح ابن حبان" (٦٤٠٤). "المستدرک" (٢/٤٥٣). وحسنه الحافظ الذهبي في "تاريخ الإسلام" - قسم السيرة" (ص ٤٢). وحسنه كذلك العلامة الألباني رحمه الله: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (١٥٤٦).
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٥) "لطائف المعارف" (ص ١٥٨ - ١٥٩).

المولد الشريف ومقدماته ^(١):

اختار الله تعالى لنبينا محمد عليه السلام أبوين شريفين كريمين، أما عبد الله بن عبد المطلب فقد كان أحب أبناء العشرة إليه، وكان له في قريش حب ومكانة أثيرة، وقد بات ملء السمع والأبصار عقب حادثة نذر عبد المطلب ^(٢)، وما جعل له من الفداء العظيم، وكان محلاً لرغبة قريش كل يرجو مصاهرته، لكن عبد المطلب وهو سيد قريش والخبير بأنسائها وأعراقها اختار له فتاة شريفة جليلة، كانت صفوة نساء قريش وفتياتها، إنها: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ^(٣)، وكنت ذات مكانة في قريش لا يكاد يدانيها فيها أحد من فتياتها.

وتمَّ ذلكم الزواج الميمون، وما هي إلا أيام معدودة حتى سافر عبد الله في تجارة له إلى الشام، وبعد أن قضى شغله منها رجع ومر بأحوال أبيه عبد المطلب وهم بنو النجار بالمدينة، وقدر أن يمرض بها، فعاد رفاقه وبقي هو، فأرسل والده عبد المطلب أكبر بنيه وهو الحارث ليرجع به، ولكن ما أن وصل الحارث المدينة حتى علم بوفاة أخيه عبد الله.

ولما بلغ الخبر مكة فجعوا به... فجع به أبوه، وفجعت قريش،

(١) ينظر لهذا وما بعده: "الطبقات الكبرى" لابن سعد - المجلد الأول - . و "سيرة ابن هشام" (٤/١ - ١٨٦). و"الإشارة لسيرة المصطفى" (ص ٥١ - ٨٠) لمغلطاي، و "السيرة النبوية" (١/١٦٠ - ٢١٨). و "تراجم سيدات بيت النبوة" (ص ٨٣ - ١٧٨) لعائشة بنت عبد الرحمن - بنت الشاطي - .
 (٢) للتفصيل حول هذه الحادثة: ينظر: "سيرة ابن هشام" (١/١٥١ - ١٥٦).
 (٣) يلتقي النبي عليه السلام في نسبه مع أمه آمنة في: عبد مناف، المجلد الثالث له عليه السلام .

غير أن أعظم الأسى كان في نفس الزوجة الأثيرة آمنة... التي لم تهناً بزوجها إلا أياما معدودة.

هكذا توفي عبد الله، وفي هذا الوقت لم يكن سيد الخلق إلا جنينا في بطن أمه، وهذا أبلغ ما يكون في اليتيم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾^(١).

وقد ترك عبد الله إثر موته خمسا من الإبل، وقطيعا من الغنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشية، فكان ذلك هو جملة ما يمكن أن يرثه ذلك الجنين اليتيم والسيد الكريم المنتظر: محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم مضت أيام الحمل وشهوره، لتتابع ما تراه آمنة من أمور واكبت حملها من رؤى منامية تنبئ عن قادم عظيم، ومن مشاعر تختلف عما يجده الحوامل من النساء، ولم تزل أشهر حملها تتتابع، تترقب هذا الوليد الذي لم تجد في حملة أي وحم أو وهن أو ألم، حتى حلَّ ذلكم الأجل، عندما دنا فجر يوم الاثنين، الثاني عشر^(٢) من ربيع الأول عام الفيل — الموافق لسنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد — حيث حل بالأرض ما يؤذن بدنو المولد المبارك، وفي هذا

(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٢) دار بين أهل العلم خلاف في تحديد اليوم، فقال ابن إسحاق: إنه يوم الثاني عشر، وقال بعضهم: بل في اليوم الثاني، وقال بعضهم: بل اليوم التاسع من ربيع الأول. أقول: ولا ريب أن مولده صلى الله عليه وسلم مولد مبارك شريف لما جعل الله تعالى بمجيء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الخير العظيم للبشرية، غير أن ما يفعله بعض الناس من الاحتفال به أمر يجب أن نتوقف عنده لننظر هل هو من سنته عليه الصلاة والسلام أم أنه على خلاف ذلك، فإذا علمنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتفل بمولده ولا الصحابة الكرام ولا التابعون لهم بإحسان في القرون المفضلة، وإنما كان من صنع العبيديين في القرن الرابع، علم حينئذ أنه أمر محدث مبتدع مردود على من يصنعه.

تقول فاطمة بنت عبد الله والدة عثمان بن أبي العاص الثقفي: إنها شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وآله حين وضعته أمه آمنة، وكان ذلك ليلاً، قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو، حتى إني لأقول: ليقعن علي^(١).

وما أن وضعت آمنة بنت وهب وليدها المبارك حتى رأت أرجاء البيت وما حوله تتلأأ نورا وضياء، وبهذا جاء الحديث الصحيح: «أن أم رسول الله صلى الله عليه وآله رأت حين وضعت نورا أضاءت منه قصور الشام»^(٢).

فكان بذلك مولد سيد البشر، وخير الأولين والآخرين: محمد صلى الله عليه وآله، السراج المنير الذي أضاء الله به دياجير الظلمات التي عمّت الأرض آنذاك.

وكان ذلك النور الذي أضاءت له الأرجاء عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) ينظر: "الإصابة في تمييز الصحابة" (٦٧/٨) في ترجمة فاطمة بنت عبد الله.

(٢) "المسند" (١٢٧/٤). من حديث العرياض، ومن حديث عتبة بن عبد السلمي —

رضي الله عنه — وصححه ابن حبان (٦٤٠٤).

قَدِيرٌ^(١). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٢).

وفي هذا المعنى يقول عمه العباس في أبياته المشهورة السائرة:
 وأنت لما ولدت أشرفت الـ
 أرض وضاءت بنورك الأفق
 فنحن في ذلك الضياء وفي الـ
 نور وسبل الرشاد نحترق^(٣)

وفي هذا السياق يورد المؤرخون ما صاحب المولد المبارك من أحداث متنوعة، من مثل انشقاق إيوان كسرى وسقوط شرفاته حتى لم يبق منها إلا أربع عشرة شرفة، وأولت بأنه إيذان بزوال ملكهم، وأنه لم يبق منهم إلا أربعة عشر ملكا، وكان كذلك، وما أصاب البحيرة العظيمة في ساوة^(٤) من الغيض — أي أنها جفت تماما — وحمود نار فارس التي كانوا يعبدونها، والتي لم تخمد منذ

(١) سورة المائدة، الآيات: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) ينظر: "لطائف المعارف" (ص ١٧٣ - ١٧٤) لابن رجب. و "سير أعلام النبلاء" (١٠٣/٢) للذهبي.

(٤) مدينة حسنة بين الري وهمدان.

ألف عام قبل مولده عليه السلام .

وقد كان مولده عليه السلام عقيب ذلك الحدث العظيم الذي سجله القرآن الكريم في سياق امتنان الله تعالى على قريش وعلى المؤمنين وبيان عاقبة المعتدين، إنها حادثة الفيل، عندما عزم أبرهة الحبشي على هدم الكعبة المشرفة فأهلكه الله وجيشه، ولم تمض إلا أيام معدودة، أربعون يوماً أو نحوها، حتى ولد المعصوم عليه السلام ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾^(١).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: كانت قصة الفيل توطئة لنبوته وتقدمة لظهوره وبعثته، وفي ولادة النبي عليه السلام عقيبها دلالة على نبوته ورسالته، فإنه عليه السلام بعث بتعظيم هذا البيت وحجه والصلاة إليه^(٢)، فاقترب بمولده حماية البيت، واقترب بمبعثه تطهيره من الشرك وورده إلى ما كان عليه من دين إبراهيم الحنيف على التوحيد الذي لأجله بني البيت.

وهكذا تنفرج أسارير هذه الأم الكريمة المكلومة بفقد الزوج الحبيب عندما أشرقت عليها الطلعة البهيجة لذلك المولود المبارك، والذي ملأ البيت من حولها نورا وسرورا، ورأت فيه السلوى عن كل ما قد فاتها أو يفوتها من مباحج الحياة الدنيا وزينتها.

(١) سورة الفيل.

(٢) "لطائف المعارف" (ص ١٨٥ و ١٨٦).

وها هي البشرية تزف للجد الشفوق عبد المطلب والذي لم تسعه الدنيا لفرحه بهذا الحفيد الحبيب، والذي رأى فيه ما يعوض حزنه على أبيه، وراح يشكر الله على هذه النعمة الجليلة والعطية الكريمة، وألهمه الله أن يسميه (محمدًا) هذا الاسم الذي حماه الله أن يتسمى به أحد من قبل نبيه صلى الله عليه وآله، فلم يتسمى به أحد إلا ما كان من عدد محدود سمي به بعض المولودين قرب مولده صلى الله عليه وآله لما قرأوا وعلموا من بعض الكتب والرهبان بقرب مولد خاتم الأنبياء والرسل، وما جاء من البشارة به في الإنجيل ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١)، رجاء أن يكون مولودهم هو صاحب تلك المنحة الإلهية.

وظفقت قريش تتسامع بهذا المولود المبارك وباتت البشارة يتناقلها أهل مكة، واحتفى البيت الهاشمي بمولودهم محمد، فنحس جده الذبائح في اليوم السابع وأقام الولائم، وكل هاشمي تغمره الفرحة والمسرة، حتى إن أبا لهب عم رسول الله صلى الله عليه وآله لما جاءته مولاته ثوية تبشره بولادة آمنة وأنها رزقت بمولود ذكر ما كان منه إلا أن أعتقها جزاء بشارتها له^(٢).

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) في "صحيح البخاري" (٥١٠١) أن عروة بن الزبير قال: وثوية مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي صلى الله عليه وآله، فلما مات أبو لهب أرى بعض أهله بشرًا حبيبة (سوء حال) قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم (أي رخاء ولا راحة) غير أنني سقيت في هذه (جاء في رواية أنه أشار للنقرة التي تحت الإبهام) بعنقني ثوية. اهـ. وقد اختلف في هذا أهل العلم وكيف ينتفع الكافر بالعمل الصالح مع كفره، لكن قال بعضهم: قد يكون هذا خاصا به كما اختص به أبو طالب، قال ابن حجر: وقد يقع التفضل المذكور من الله إكراما لمن وقع من الكافر

وبقي نبينا عليه السلام عند أمه الكريمة آمنة فترة وجيزة، فحين ولدته كان رضاعها له أياما معدودة، وأرضعته كذلك ثوية جارية عمه أبي لهب مع ابن لها يقال له: مسروح.

ولما كان من عادة قريش استرضاع صغارها في البوادي، ليكون ذلك أوفق لهم في أبدانهم وألسنتهم، فقد استرضع النبي الكريم عليه السلام في بادية بني سعد بالطائف، لدى السيدة الجليلة حليلة بنت ذؤيب السعدية — رضي الله عنها — فتولت رضاعه وحضانتها، واغتبطت بمقامه عندها أكثر من ثلاث سنين، وسنشير إلى شيء من هذه الذكريات الأثيرة في صفحات تالية بعون الله.

ولما كان مبتدأ السنة الخامسة من العمر المبارك لنبينا محمد عليه السلام عاد إلى أمه الحنون بعد أن قوي جسمه وبلغ من النضرة وتفتق الذهن ما لم يبلغه صبي في مثل عمره.

وها هو سيد الخلق عليه السلام يدرج في كنف أمه الكريمة، التي أشغلت به ليلها ونهارها، فقد أضحى هو كل شيء في حياتها، وها هو الجد عبد المطلب يلاحظه ويرعاه ويخصه بمعاملة متميزة من التوقير والرعاية والعناية ما لم يجده حتى بنوه، كل ذلك من رعاية الله له وعنايته به: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾^(١).

وعندما بلغ المعصوم عليه السلام السادسة من عمره ارتأت أمه أن

البرُّ له، ونحو ذلك. ينظر: "فتح الباري" (١٤٦/٩ - ١٤٧).
(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

تذهب به إلى أحوال أبيه من بني النجار ^(١) بالمدينة، ليراهم ويروه، فأقامت عندهم شهرا من الزمان، وقد كانت ذكريات هذه الرحلة خالدة في ذاكرة نبينا عليه السلام، برغم حداثة سنه إذ ذاك، فقد جاء في بعض الآثار ^(٢) أنه عليه السلام كان يذكر أمورا كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أطم ^(٣) بني عدي بن النجار عرفه وقال: "..... كنت مع غلمان من أحوالي نُطِير طائرا كان يقع عليه....."، ونظر عليه السلام إلى الدار فقال: "ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسن العوم في بئر بني عدي بن النجار"، هكذا يلتفت الحبيب عليه السلام إلى تلك الأيام الخوالي وما تكتنفه من ذكريات أثرية.... بصحبة أمه الرؤوم آمنة بنت وهب.

وها هو الركب ييمم نحو مكة بعد أن قضت الأم وصغيرها تلك الأيام المعدودة، وفي الطريق بين مكة والمدينة حلّ مرض بالأم الجليلة آمنة، حتى وافاها الموت بالأبواء، فشاهد نبينا عليه السلام فراقها ورحيلها عن الدنيا.... وقاسى لوعة ذلكم الفراق، حتى إنه عليه السلام لما مر بموضع موت أمه بعد أكثر من خمسين عاما توقف عند قبر أمه ومعه عشرة آلاف فارس، فلم يرعهم إلا وسيدهم وإمامهم عليه السلام يذرف الدموع الحرّى، فبكى وأبكى من حوله من أجل أمه الرؤوم ^(٤).

(١) هذه الخؤولة سبيلها من جهة سلمى بنت عمرو النجارية، فهي أم عبد المطلب، وجده لعبد الله ابنه، فقومها أحوال له، وهم بذلك أحوال لنبينا محمد عليه السلام لكونهم أحوال أبيه.

(٢) ينظر: "طبقات ابن سعد" (١/١١٥).

(٣) حصن من حصون ديارهم ومزارعهم.

(٤) ينظر: "صحيح مسلم" (٦٧٦)، و"شرح السنة" (٥/٤٦٣) للبخاري.

ست سنين هي عمره عليه السلام إذ فارق أمه، ليزيد جده عبد المطلب من رعايته والعناية به والشفقة عليه، حتى إن عبد المطلب كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إحلالاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأتي وهو غلام يجلس عليه، فهم أعمامه أن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلاً: دعوا ابني، إنه ليؤنس مُلكاً، ثم يجلسه ويمسح ظهره بيده.

وكان عبد المطلب يقربه منه ويدنيه، ويدخله عليه إذا خلا، وإذا نام، ولا يأكل طعاماً إلا ويقول: "علي بابني" فيؤتى به إليه، وكان يوصي به حاضنته بعد وفاة أمه بركة أم أيمن ويؤكد على رعايته وملاحظته، فكانت كذلك في الرفق به والشفقة عليه وملاحظة شؤونه، ولهذا كان المعصوم عليه السلام يذكر لها ذلك، فروي عنه قوله: «هي أمي بعد أمي».

ولما بلغ نبينا صلى الله عليه وآله الثامنة من عمره حضرت الوفاة جده عبد المطلب، فأكد وصيته بنبينا محمد صلى الله عليه وآله، وعهد إلى عمه أبي طالب بكفالاته وحياطته، ولما مات عبد المطلب وجد المصطفى صلى الله عليه وآله لفقده حزناً عظيماً كقدر ما كان يحبه، جاء في رواية لابن سعد في "الطبقات" أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: "نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين".

وقالت أم أيمن: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

ثم انتقلت كفالة رسولنا عليه السلام لعمه أبي طالب الذي كان وقتها أشرف قريش وأعظمها مكانة وأكرمها نفسا، برغم أنه لم يكن أكبر بني عبد المطلب سنا ولا أكثرهم مالا، فعظمت مكانة المصطفى عند أبي طالب وأحبه حبا شديدا، وكان يحرص غاية الحرص على ملازمته ويخصه بأشياء كثيرة من قبيل التكريم والتقدير، وقد لاحظ أبو طالب بركات حلول لرسول الله عليه السلام في معيشته وزاده وطعامه.

ولم تنزل دلائل الشأن العظيم للنبي عليه السلام تبدو لأبي طالب يوما بعد يوم، ومن ذلك ما كان عندما سافر معه إلى الشام حتى وصلوا بصرى، فأخبرهم راهب هنالك يقال له: بحيرى بما توسمه من مخايل النبوة والشأن العظيم لرسول الله عليه السلام، وما كان من إضلال السحاب له من الشمس، وغير ذلك من الدلائل، ونصحه أن لا يذهب به إلى الشام خوفا عليه من اليهود^(١).

ومما قاله أبو طالب يثني به على النبي عليه السلام :
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثم اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

(١) ينظر: "جامع الترمذي" (٣٦٢)، و"المستدرک" (٦١٥/٢). و"الإصابة في تمييز الصحابة" (٢٩٣/١) للحافظ ابن حجر. و"صحيح سنن الترمذي" (١٩١/٣) للعلامة الألباني.

ومن الأحداث التي كانت في طفولة نبينا محمد صلى الله عليه وآله :

رعيه الغنم:

روى البخاري عن أبي هريرة — رضي الله تعالى عنه — عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرها على قراريط لأهل مكة».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة: أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقتها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقتها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجربوا كسرهما، ورفقوا بضعفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك: لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقتها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقتها فهي أسرع انقيادا من غيرها، وفي ذكر النبي صلى الله عليه وآله لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى

سائر الأنبياء" (١).

وهكذا يمضي سيد الخلق عليه السلام هذه الطفولة بين أرجاء مكة وأنحاءها، ولم تنزل مكانته بين قومه تزداد سموا وعزا.... لما رأوا فيه من الطهر والزكاء والنبيل والوفاء، لقد عرفوه حق المعرفة... عرفوا نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، هكذا نشأ بينهم معروفاً بذلك كله، ولم يحفظوا عنه كذبة قط، ولهذا سأل هرقل ملك الروم عن هذه الأوصاف، فعلم أنه ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل، وعلم بذلك صدقه فيما جاء به من النبوة والرسالة.

ولا غرو في ذلك.... فإن الله كان يهيئه لأعظم رسالة وأشرف مكانة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (٢).

وتتتابع الأيام وتمضي الشهور والأعوام والنبى عليه السلام يزداد شرفاً ورفعة ومكانة بين أهل مكة، فلدى تدرجه في مراحل عمره.... ما بعد الطفولة وفي صباه وفي شبابه.... وما بعد ذلك.... لم يعرفوا عنه عليه السلام أي أمر يشينه.... فسرتة تتوهج نبلا وطهرا وزكاء.... كانت مكة ترتجس بأنواع الملاهي وغوائل العقل والعرض، وطالب هذه الأمور لا نكير عليه ولا مانع له، لكنه عليه السلام لم يحفظ عنه في يوم من الدهر أنه تعاطى أي أمر مما يبغضه الله من تلك الملاهي المحرمة

(١) "فتح الباري" (٤/٤٤١).

(٢) سورة الضحى، الآيات: ٥ - ٨.

والأفعال المنكرة.

واستمر ذلك الطهر والزكاء في سيرة المعصوم عليه السلام ، وحفظه الله من مزلق الطبع الإنساني برغم ما كانت ترتجس به مكة آنذاك من أمور منكرة، أما أهل مكة فكانوا لا يدانون به عليه السلام أحدا منهم ولا من غيرهم في طهره وأمانته وزكائه، فبات نبينا عليه السلام ملء سمع قريش وأبصارها، فلا تعرفه ولا تدعوه إلا بالأمين.... حتى أكرمه الله بالنبوة وابتعثه بالرسالة الخاتمة. فتضاعفت فيه تلك الأخلاق الكريمة وتزايدت الخلال النبيلة بما أوحى الله إليه من الشرع المطهر علاوة على الفطرة المستقيمة التي فطر الله عليها نبيه محمدا عليه السلام .

نسأل الله أن يوفقنا لمتابعته وسلوك هديه، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرة. آمين.



مراضع المصطفى عليه السلام وحواضنه

تاريخ وذكريات

كان من عادة العرب — ومنها قريش — أن تسترضع صغارها في البوادي، ليكون ذلك أوفق لهم في أبدانهم وألسنتهم.

وها هو وفد نساء هوازن وقد أتين من بادية بني سعد يُيَمَّن وجوهن نحو حاضرة قريش عليهن يحظين بصبي أو جارية يدخل عليهن من خلاله مال يزحزح عنهن شبح الفاقة والعيلة.

ولما كان سيد البشر نبينا محمد عليه السلام حينذاك يتيما لا يُرجى له أب يغدق النوال والعطاء، فقد أعرض عنه المراضع، لتتوجه منحة ربنا وكرامته إلى سيدة كريمة ومرضع جليلة إنها: حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية... فأسعدها ربها بخير البرية محمد عليه السلام.

فقد أكرم الله تعالى هذه المرأة بأن تتولى رضاع النبي عليه السلام وحضانتها لمدة تربو عن أربع سنين.

وخبر إرضاع حليلة للنبي عليه السلام في ديار قومها في بادية بني سعد بالطائف خبر شهير مستفيض في كتب السيرة وفي غيرها، وقد قال بصحته عدد من العلماء الحفاظ كابن كثير والذهبي وابن حجر — رحمهم الله — وغيرهم.

وقد أورد الحفاظ الذهبي — رحمه الله — في قسم السيرة من "تاريخ الإسلام" ^(١) خبراً مطولاً رواه بعض أهل السير عن حليلة

(١) (ص ٤٥ - ٤٨).

السعدية — وجود إسناده — تخبر فيه عما لاحظته إبان إرضاعها له مما يدل على برakte عليه السلام ، وعناية الله به وحفظه له .

فما أن حل عليها محمد بن عبد الله عليه السلام ، حتى در ثديها اللبن، فارتوى منه عليه الصلاة والسلام وارتوى ابنها الذي كانت تحمله ^(١)، بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، وكان ابنها من شدة ما فيه من الجوع من قبل يبكي حتى لا يدع أحدا ينام، وبركة المصطفى عليه السلام وهو رضيع امتلاً ضرع راحلة حليلة باللبن بعد أن كان يابسا، فشبت هي وزوجها من لبن الراحلة، وأضحت نشيطة قوية، تسير في مقدمة الركب بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان، وحيثما حلت أغنام حليلة تجد مرعى خصبا فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئا، وكان ينمو نموا سريعا لا يشبه نمو الغلمان .

كل ذلك وغيره من مباركة الله تعالى لنبيه عليه السلام ، منذ صغره على حليلة وأهلها .

ثم عادت هذه البركة على هوازن كلهم بعد أن أسروا بعد فتح مكة ^(٢)، كما سأذكره بعد قليل، بل إن برakte عليه السلام عادت على البشرية جمعاء ليخرج الله من شاء منهم من الظلمات إلى النور .

وكانت حليلة — رضي الله عنها — تداعب النبي عليه السلام وترقصه،

(١) واسمه: مسروح .

(٢) ينظر: "البداية والنهاية" (٢/٣٣٨)، ط الأولى دار إحياء التراث، تحقيق: علي شيري .

وتناغيه، كما تفعل الأمهات مع الأبناء، فمن ذلك قولها ^(١):
 يا رب إذ أعطيتـه فأبقتـه
 وأعلتـه إلى العـلا ورقـه
 وادحض أباطيل العدا بحقه

وكانت الشيماء — أخته من الرضاعة — تقول:
 هـذا أخ لي لم تلده أمي
 وليس من نسل أبي وعمي
 فديتـه من مخول معمي ^(٢)
 فأتمتـه اللهم فيما تنمي

وكانت تقول — أيضا — :
 يا رب أبـق أخـي محمدا
 حتـى أراه يافعـا وأمـرادا
 ثم أراه سـيدا مسـودا
 واكبت أعاديـه معا والحسدا
 وأعطه عزا يدوم أبدا

وهكذا تعيش حليلة أزهي أيام عمرها وأسعدها منذ ولدت،
 حتى جاء ذلك اليوم الذي وقع فيه حادث أفلقها، ذلكم هو ما بينه

(١) ينظر: "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة" (١/١٩٥) للدكتور محمد أبو شهبه
 — رحمه الله —.

(٢) تعني أنها تفتديه بأكرم أحوالها وأعمامها.

ما رواه مسلم في "صحيحه" ^(١) عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل — عليه السلام — وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه [أي جمعه وضم بعضه إلى بعض] ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعني ظئره [أي مرضعته] فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع [أي متغير اللون] قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره [يعني أنه كان يرى أثر الغرزات والخياطة في صدر النبي ﷺ].

كانت تلکم الحادثة ولرسول الله ﷺ حوالي الأربع سنين أو الخمس ^(٢).

ويحدثنا المصطفى ﷺ عن هذه الحادثة التي كانت في طفولته وكيف أنها أقلقت حاضنته وأمه من الرضاعة حليلة فيقول: "فقلت: أعيدك بالله، فرحلت بعيرا لها، فجعلتني على الرحل وركبت خلفي، حتى بلغنا إلى أمي، فقلت: أديت أمانتي ودميتي، وحدثتها بالذي لقيت، فلم يرعها ذلك [أي لم تفزع أو تقلق]، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام" رواه الإمام الدارمي وأحمد والحاكم ^(٣)، وصححه الحافظ الذهبي

(١) رقم (٢٦١/١٦٢).

(٢) ينظر: "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" (ص ١١٧) د. مهدي رزق الله أحمد.

(٣) "سنن الدارمي" (١/٨ - ٩)، "المسند" (٤/١٨٤)، "المستدرک" (٢/٦١٦ - ٦١٧).

والعلامة الألباني^(١).

ويحسن التوقف عند حادثة شق الصدر هذه، والتي تكررت أيضا ليلة الإسراء كما ثبت ذلك في "الصحيحين"^(٢) أيضا، حيث يقول الحافظ ابن حجر — رحمه الله — : "إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيته القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك". اهـ^(٣).

وشق الصدر هذا يبين تعهد الله — عز وجل — نبيه محمدا عليه السلام عن مزلق الطبع الإنساني ووساوس الشيطان، وهو حصانة للرسول الكريم التي أضافها الله عليه ليكون المثل الكامل للإنسان الكامل الذي يحقق الكمال بطهارة القلب وزكاء النفس، ولأجل ذلك فقد شب رسول الله عليه السلام بمكة وهي تعج بمختلف أنواع اللهو والفساد والملاذ الشهوانية الدنسة، ومظاهر الشرك المتنوعة، ولم يتدنس بشيء من ذلك، فكانت حياته عليه السلام حياة زكية طاهرة من الآثام التي تُدنس كثيرا من الشباب في مجتمعاتهم.

وعودا على رضاعه عليه الصلاة والسلام، فها هو بعدما يزيد على ستين سنة يعود ببركته وبره على مرضعته وقومها، فإن هوازن وقعوا في الأسر وغنمت أموالهم في غزوة حنين، وذلك بعد فتح

(١) "السيرة من تاريخ الإسلام" (ص ٤٨ - ٤٩)، "السلسلة الصحيحة" رقم (٣٧٣).
 (٢) "صحيح البخاري" (٣٢٠٧)، "صحيح مسلم" (١٦٤)، "السيرة" للذهبي (ص ٤٩).

(٣) "فتح الباري" (٢٠٥/٧)، عند حديث (٣٨٨٧).

مكة بأشهر، قال وفدهم وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال ضمن ما قال: "إنما في هذه الحظائر [يعني مواضع الأسرى] عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك" ^(١).

فأطلق النبي صلى الله عليه وآله الذرية، وكانت ستة آلاف، ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاما وأناسي كثيرا.

وهذا الخبر ضمن أبيات شعر مال الحافظ ابن حجر إلى تصحيحه ^(٢).

قال الحافظ ابن كثير: قال الحسين بن فارس فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم (أي خمسمائة مليون درهم)، فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الآخرة. اهـ ^(٣). أسأل الله الكريم أن يجعلني وإياك منهم.

وحيث قد عدنا بالذاكرة بما يزيد على ألف وأربعمائة وخمسين عاما، فلنبق هنالك لنختم هذا المقتطف العابق بذكر حواضن المصطفى صلى الله عليه وآله على طريقة أهل السير.

وفي هذا يقول العلامة ابن القيم ^(٤) — رحمه الله — : فمنهن أمه

(١) حاشية "دلائل النبوة" للبيهقي (١/١٣٧ - ١٣٨).

(٢) ينظر: "الإصابة" (٢/٤٧٤).

(٣) "البداية والنهاية" (٢/٣٤٠)، والخبر رواه ابن هشام (٢/٤٨٨) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا سند حسن، وأخرجه بنحوه البخاري. وأحمد (٤/٣٢٦).

(٤) ينظر: "زاد المعاد" (١/٨٣).

آمنة، ومنهن ثوية، وحليمة، والشيماء ابنة حليمة، وهي أخت النبي صلى الله عليه وآله من الرضاع، كانت تحضنه مع أمها، ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية، وهي مولاته، ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة، وقيل ورثها من أمه.

قال القرطبي — رحمه الله — : وكان صلى الله عليه وآله يكرمها، ويرها مبرة الأم، ويكثر زيارتها، وكان صلى الله عليه وآله عندها كالولد، ولذلك كانت تتذمر وتتعضب عليه محبة وشفقة، ومن طريف ذلك ما رواه مسلم في "صحيحه" ^(١) عن أنس قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أم أيمن، وانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب، قال: فلا أدري أصادفته صائما أو لم يرده، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه. يعني كما تفعل الأمهات إذا عاف الابن الطعام.

وللقرطبي — رحمه الله — كلام في الثناء عليها، والتعليق على بكائها على النبي صلى الله عليه وآله كلام مختصر جليل يضيق المقام عن إيراده وهو في كتابه "المفهم" ^(٢).

وبعد، أيها الأحبة، تلکم بعض الصفحات لطفولة أعظم مخلوق وطئت قدماه الثرى صنعت على عين الله، يرعاه ويجوطه، وله الحكمة والقدرة سبحانه، طفولة امتزجت بإظهار المعجزات مع مكابدة البلاء من اليتيم والعيلة وقلة النصير، حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته بدين الإسلام وبعثه خير الأنام محمد بن عبد الله خاتم رسل

(١) رقم (٢٤٥٣).

(٢) ينظر: "المفهم" (٦/٣٦١ - ٣٦٢).

الله وأنبيائه عليهم السلام .

وفقنا الله لسلوك شرعه واقتفاء هديه ولزوم سنته ومصاحبته في
الآخرة. آمين... .

* * *

الرعاية النبوية للطفولة

لا ريب أن الحياة الأسرية النبوية مثال متميز في سموه وكماله، ولهذا ينبغي على كل مسلم ومسلمة الاقتداء بها وترسُّم آثارها، ومن جوانب هذه الأسر التي ينبغي دراستها وتفهمها، جانب الرعاية النبوية للطفولة، وهذا جانب جدير بأن يفرد بالتأليف والتصنيف، وفي ضوء ذلك فسوف نستجلي تلك الرعاية النبوية مع التنبيه على بعض الدروس والفوائد.

وفيما يتعلق بأولاد النبي صلى الله عليه وآله الذي رزق بهم، فمعلوم أنه صلى الله عليه وآله رزق بسبعة، أربع بنات، وثلاثة أولاد ذكور.

البنات هن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، والأبناء: القاسم وعبد الله وإبراهيم.

وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وكلهم ماتوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر.

ومن صور رعاية الطفولة في بيت النبوة، ما رواه مسلم في "صحيحه" ^(١) عن خادم رسول الله صلى الله عليه وآله أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم»، ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين [أي حداد] يقال له أبو سيف، [يعني أنه صلى الله عليه وآله جعل تلك المرأة التي يقال لها أم سيف ترضع إبراهيم، كما كانت عادة العرب في ذلك] قال أنس:

(١) (رقم ٢٣١٥).

فانطلق يأتيه، واتبعته، فاتتهينا إلى أبي سيف، وهو ينفخ بكيره، قد امتلأ البيت دخانا [يعني من آثار الحدادة] قال أنس: فأسرعت المشي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا أبا سيف، أمسك، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمسك، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالصبي، فضمه إليه، وقال: ما شاء الله أن يقول".

فدل هذا الحديث على كمال رافة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته، فبرغم كونه إمام الأمة وقائدها فلم يشغله ذلك عن رعاية هذا الوليد الجديد، وفي هذا تنبيه لأولئك الآباء والأمهات الذين يجرمون أبناءهم من عطفهم وحنانهم ويتشاغلون عنهم بالجري المستميت في جمع المال أو في غير ذلك.

وها هو عليه الصلاة والسلام يقدم درسا عمليا لمثل هذا الصنف من الناس. ذلك ما ثبت في "الصحيح" ^(١) عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي — رضي الله عنهما — وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم».

فهذا الرجل وهو الأقرع بن حابس — وكان من سادة العرب وأمرائهم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه — كان يظن أن مقام الرجولة والسيادة يفرض على صاحبه عدم التأثر بالعاطفة، وأن يكون منقبضا عن إظهار أثر تلك العاطفة أمام الناس، فاستنكر

(١) عند البخاري (رقم ٥٩٩٧)، ومسلم (رقم ٢٣١٨).

تقبيل النبي ﷺ للحسن — رضي الله عنه — .

لكن النبي ﷺ بين له أن تقبيل الأطفال والحنو عليهم والشفقة بهم مظهر من مظاهر الرحمة التي يستحق صاحبها رحمة الله — جل وعلا — ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١).

ومن صور الرعاية النبوية للطفولة: ما رواه البخاري ومسلم^(٢) عن عائشة أم المؤمنين — رضي الله عنها — قالت: أتى رسول الله ﷺ بصبي [وذلك ليحنكه، كما في رواية] فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إياه.

وروى البخاري ومسلم^(٣) أيضا عن أم قيس بنت محصن — رضي الله عنها — أنها أتت بابن لها صغير، لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ ، فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه، ولم يغسله.

ففي هذين الحديثين أن هذين الصبيين أتى بهما إلى النبي ﷺ ، وكان المسلمون يأتون بصبياتهم إليه ﷺ ، ليحنكهم وليدعو لهم ولطلب بركته ﷺ ، وحيث أن الصبي صغير لا يعقل، فرمى بال بعض أولئك الصبيان على ثياب النبي ﷺ ، إذا كان الواحد منهم في حجره ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يأنف لذلك ولا

(١) أخرجه أحمد (١٦٠/٢)، وأبو داود (رقم ٤٩٤١)، والترمذي (رقم ١٩٢٤)

وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٣٥٢٢).

(٢) "صحيح البخاري" (٢٢٢)، و"صحيح مسلم" (٢٨٦).

(٣) "صحيح البخاري" (٢٢٣)، و"صحيح مسلم" (٢٨٧).

يغضب، بل يرفق بهم ويتلطف معهم، وكان هديه أن يرش ذلك البول بالماء.

وفي هذين الحديثين عدد من المسائل والفوائد: منها:

بيان ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله من التواضع وطيب المعشر، ورحمته بالصغار، ومراعاة خواطر أهليهم إذا صدر من أولئك الصغار ما يكره، فإن ذلك الصبي لما بال على ملابس النبي صلى الله عليه وآله لم يظهر كراهة ذلك، بل شرع النبي صلى الله عليه وآله ما ينبغي لهم في مثل هذه الحال.

ولو أن صبيا بال على الفراش لا على ملابس الأب أو الأم لسمعت دعوات الموت أن تنزل به، أو أن يتخطفه الجن، أو يجلب به مرض أو عاهة!.

وهذا يقع من كثير من الناس وخاصة الأمهات، وهذا خلاف الهدى النبوي.

وقد قال صلى الله عليه وآله: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»^(١).

ومن المسائل التي دل عليها الحديث المذكور آنفا: استحباب تحنيك الطفل الوليد.

قال الحافظ ابن حجر — رحمه الله — : والتحنيك: مضغ

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٣٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٧٢٦٧).

الشيء ووضعها في فم الصبي، وذلك حنكه به، يصنع ذلك بالصبي ليتمرن على الأكل ويقوى عليه، وينبغي عند التحنيك أن يفتح فاه، حتى ينزل [الحنك به إلى] جوفه، وأولاه التمر، فإن لم يتيسر تمر فرطب، وإلا فشيء حلوا، وعسل النحل أولى من غيره، ثم ما لم تمسه النار، كما نظيره مما يفطر الصائم عليه" اهـ.

ومن أدلة سنة التحنيك، ما رواه مسلم ^(١) عن عائشة قالت: كان صلى الله عليه وآله يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم.

"فدل ذلك على أن التحنيك سنة لفعل النبي صلى الله عليه وآله بحيث يقوم به الوالدان أو غيرهما، لكن لا يطلب ذلك من العلماء أو الصالحين أو غيرهم لأجل التبرك بهم، لأن طلب ذلك من الغير لأجل البركة خاص بالنبي صلى الله عليه وآله حيث جعل الله البركة في ريقه وعرقه صلى الله عليه وآله" ^(٢).

ومن المسائل التي دل عليها الحديثان المذكوران، أن الصبي الذكر إذا كان لا يأكل الطعام، أي أنه لا يزال يعتمد في طعامه على الحليب فقد خففت نجاسة بوله بأن يُكتفى بإمرار الماء عليه دون ذلك ولا عَصْر، كما في النجاسات الأخرى. ولهذا المسألة تفصيلات محلها كتب الفقه.

وها هو موقف آخر وصفحة وضيئة من بيت النبوة في العناية بالأطفال وتلبية نزعاتهم الفطرية من محبة العبث واللعب أو التعلق بأشخاص ونحو ذلك، يبين هذا موقف طريق لأمامة بنت أبي العاص

(١) في "صحيحه" (رقم ٢٨٦).

(٢) من إفادات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز — رحمه الله — .

بن الربيع، حفيدته عليها السلام، بنت بنته زينب، فقد روى أبو قتادة — رضي الله عنه — قال: بينما نحن ننتظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة، في الظهر أو العصر، وقد دعاه بلال للصلاة، إذ خرج علينا وأمامة بنت أبي العاص، بنت ابنته، على عنقه، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مصلاه، وقمنا خلفه، وهي في مكانها الذي هي فيه، قال: فكبر، فكبرنا، قال: حتى إذا أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يركع أخذها فوضعها، ثم ركع وسجد، حتى إذا فرغ من سجوده ثم قام، أخذها فردها في مكانها، فما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصنع بها ذلك في كل ركعة، حتى فرغ من صلاته.

هذه إحدى روايات أبي داود في سننه^(١)، وأصله في صحيح البخاري^(٢)، ومسلم^(٣) بسياق أخصر من هذا.

وكان أمامة وهي الطفلة الصغيرة قد تعلقت بأبيها عليه السلام حتى ألحت بأن تخرج معه للصلاة، ولو تركها لبكت لذلك، فخرج بها — عليه الصلاة والسلام — وصلى بالمسلمين وهو يحملها على عاتقه الشريف، فإذا سجد وضعها، ثم يعيدها إذا قام.

قال الإمام الحافظ النووي — رحمه الله — عن فعله عليه السلام ذلك: إنه جائز لنا وشرع مستمر للمسلمين إلى يوم الدين، وذكر من فوائده: جواز حمل الصبيان في الصلاة، وأن ثيابهم وأجسادهم محمولة على الطهارة حتى يتحقق نجاستها، وأن الفعل القليل لا

(١) (رقم ٩٢٠).

(٢) (رقم ٥١٦، ٥٩٩٦).

(٣) (رقم ٥٤٣).

يبطل الصلاة، وأن الأفعال إذا تعددت ولم تتوال بل تفرقت لا تبطل الصلاة، وفيه تواضع النبي صلى الله عليه وآله وشفقته على الأطفال، وإكرامه لهم جبرا لهم ولوالديهم. اهـ. ملخصا.

وينبه هنا إلى أن الحكم بجواز حمل الصبيان في الصلاة لا يعني أن يكون من عادة الأب أن يأتي بأبنائه للمسجد وهم غير مميزين، أو وهم يحدثون الفوضى، أو وهم لا يوجهون ولا يقبلون التوجيه، بل ينبغي أن يحرص على توجيه الأطفال عند حضورهم للمسجد إلى ما ينبغي، وكل ذلك باللطف واللين.

فمن مظاهر تلك الرعاية: ما رواه الإمام أحمد ^(١) والنسائي ^(٢) بسند صحيح عن عبد الله بن شداد عن أبيه — رضي الله عنه — قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراي صلاته سجدة أطاها، قال شداد: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراي صلاتك [يعني في أثناء صلاتك] سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليه، قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى

(١) في "مسنده" (٤٩٣/٣) (٤٦٧/٦) من حديث شداد بن الهاد الليثي.

(٢) في "المجتبى" (١٢٩/٢ - ٢٣٠ - رقم ١١٣٩)، وفي "الكبرى" (برقم ٧٢٧)، وكذا أخرجه الحاكم في "المستدرک" (١٦٥/٣ - ١٦٦) (٦٢٦/٣ - ٦٢٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

يقضي حاجته».

وهذا درس عملي منه عليه السلام ، وعلى مرأى من الصحابة لبيان جواز مثل ذلك العمل في الصلاة، قال الحافظ الذهبي معقبا عليه: أين الفقيه المنتطح عن هذا الفعل.

وفي رواية لابن حبان في "صحيحه" ^(١) عن أبي بكره — رضي الله عنه — قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا، وكان الحسن يجيء وهو صغير، فكان كلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وثب على رقبته وظهره، فيرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه رفعا رقيقا حتى يضعه، فقالوا: يا رسول الله، إنك تصنع بهذا الغلام شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد، فقال: «إنه ريحاني من الدنيا، إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين».

وقوله صلى الله عليه وسلم: عنهما: «ريحاني من الدنيا» شبههما بذلك لأن الولد يشم ويقبل.

وروى أهل "السنن" ^(٢) بسند حسن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه — رضي الله عنه — قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يخطب إذ قبل الحسن والحسين — رضي الله عنهما — عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل وحملهما، فقال: «صدق الله: ﴿وَأَمَّا

(١) (٥٧/٩ رقم ٦٩٢٥)، وفي "موارد الظمان" (رقم ٢٢٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٤/٥)، وأبو داود (رقم ١١٠٩)، والترمذي (رقم ٣٧٧٤)، وابن ماجه (رقم ٣٦٠٠)، وابن خزيمة في "صحيحه" (رقم ١٤٥٦ ، ١٨٠١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ ﴿١﴾ رأيت هذين يمشيان ويعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتى نزلت فحملتهما»، وفي رواية: ثم أخذ في خطبته.

وفي صحيح البخاري ^(٢) عن أبي بكره قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر، والحسن إلى جنبه [يعني وهو طفل صغير] ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين».

وهذا من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم ودلائل نبوته، حيث كان ذلك الذي أخبر به في عام واحد وأربعين في شهر ربيع الأول، وذلك عندما نزل الحسن بن علي - رضي الله عنهما - عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - فحققت بذلك دماء الأمة، وما أعظمه من سيد جليل رزين عاقل حينما التقت عساكر المسلمين الذين معه ومع معاوية، والناس أمثال الجبال في الحديد، فقال: أضرب هؤلاء بعضهم ببعض في ملك من ملك الدنيا! لا حاجة لي بهم - فرضي الله عنه وأرضاه - .

وفي المسند ^(٣) بسند صحيح عن أبي الحوراء قال: قلت للحسن بن علي: ما تذكر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [وإنما هذا السؤال لصغره عندما توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان له من العمر نحواً من سبع سنين وستة أشهر حيث كان مولده للنصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة وهكذا أخوه الحسين كان يصغره بسنة أو أقل] فقال الحسن

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥

(٢) (رقم ٢٧٠٤ ، ٣٦٢٩ ، ٣٧٤٦ ، ٧١٠٩).

(٣) (٢٠٠/١) من حديث أبي الحوراء السعدي.

في جوابه لأبي الحوراء: أذكر أبي أخذت ثمرة من تمر الصدقة فألقيتها في فمي، فانتزعها رسول الله صلى الله عليه وآله بلعها، فألقاها في التمر، فقال له رجل: ما عليك، لو أكل هذه التمرة؟ قال: «إنا لا نأكل الصدقة»، قال: وكان يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»^(١) قال: وكان يعلمنا هذا الدعاء، [وفي رواية علمني] رسول الله صلى الله عليه وآله كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت».

وفي صحيح البخاري^(٢) ومسلم^(٣) عن أبي هريرة قال: أخذ الحسن بن علي ثمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كخ كخ، إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»، وفي رواية: «أنا لا تحل لنا الصدقة». قال الحافظ ابن حجر في فوائده: فيه تأديب الأطفال بما ينفعهم ومنعهم مما يضرهم من تناول المحرمات، وإن كانوا غير مكلفين ليتدربوا على ذلك. فليتنبه لهذا من استمرأت نفسه أن يتعاطى المحرمات من أموال وغيرها ثم يطعم أولاده منها، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أبما جسد بني علي حرام

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٠٠/١)، والترمذي (رقم ٢٥١٨)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٣٣٧٨).

(٢) (رقم ١٤٩١).

(٣) (رقم ١٠٦٩).

فالنار أولى به».

وهكذا نلاحظ من خلال المواقف السابقة وغيرها أن أكثر رعاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للأطفال والطفولة، بتشتتهم على الإيمان والتقوى، وتوثيق صلتهم بالخالق - جل وعلا، مع تعويدهم على الأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، ورعاية الأدب والفضيلة، مع إشباع رغباتهم الفطرية في اللهو واللعب المباح والمفيد، من غير زجر لهم، ولا جرح لمشاعرهم الرقيقة، ولا تكدير لخواتمهم اللطيفة، إذ أن من صفات النفوس الكريمة الحرص على غرس السعادة في نفوس الأطفال ورسم البسمة على وجوههم.

فحمل الطفل وتقبيله وضمه ومداعبته والابتسام في وجهه لها أثر السحر في نفسيته.

وهكذا التوجيهات اللطيفة الأساسية ترسخ في قلب الطفل وذاكرته كما تقدم فيما حفظه الحسن من جده الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا مداعبته صلى الله عليه وآله وسلم لأحد أطفال الصحابة وله من العمر خمس سنين، ذلكم هو محمود بن الربيع حيث روى عنه البخاري في "صحيحه" ^(١) أنه قال: عقلت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مَجَّةً مَجَّهًا في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو".

وهكذا مداعبته صلى الله عليه وآله وسلم لأخي أنس بن مالك وقوله له: «يا أبا

(١) (رقم ١١٨٥).

عُمَيْرٌ مَا فَعَلَ النَّعِيرُ» لأن أبا عمير هذا كان له طائر وهو النُّعْرَة يشبه العصفور فمات، فحزن عليه، فلما زارهم النبي صلى الله عليه وآله فرآه حزين النفس مهموم فأخبر أنه حزن على موت طيره فمسح النبي صلى الله عليه وآله رأس أبي عمر يداعبه ويقول: «يا أبا عمير، ما فعل النعير» خرجته البخاري^(١) وغيره، وفيه من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ما يزيد على ستين وجها. نبه إليها الحافظ في الفتح.

وجاءت طفلة إلى النبي صلى الله عليه وآله مع أبيها، وهي بنت خالد بن سعيد، وعليها قميص أصفر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «سنه، سنه»، قال الراوي ومعناها بالحبشية: حسنة، وكانت هذه الطفلة قد لبثت في الحبشة زمنا أثناء الهجرة للحبشة فعرفت شيئا من لغتهم، ثم همت تلك الصبية أن تلعب بخاتم النبوة الذي بين كتفيه صلى الله عليه وآله، فزجرها أبوها، فقال عليه الصلاة والسلام: «دعها» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: [بعد أن كساها ثوبا جديدا كما في الرواية]: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي»، فبقي ذلك الثوب أمدا طويلا وعمرت تلك الطفلة عمرا طويلا ببركة دعائه صلى الله عليه وآله، والحديث رواه البخاري وبوب عليه في كتاب الأدب فقال: باب من ترك صبية غيره تلعب به، أو قبلها أو مازحها^(٢).

وفي جانب آخر من جوانب رعاية الطفولة في بيته صلى الله عليه وآله ثبت في صحيح البخاري^(٣) وغيره عن ابن عباس — رضي الله عنه — قال:

(١) في "صحيحه" (رقم ٦١٢٩)، وكذا أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ٢١٥٠).

(٢) رقم (٥٩٩٣)، وينظر: "الفتح" (١٠/٢٧٢، ٤٢٥).

(٣) رقم (٣٣٧١).

كان النبي صلى الله عليه وآله يعوذ الحسن والحسين: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»، ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق».

وفي سياق حفظ الأطفال ورعايتهم يوجه النبي صلى الله عليه وآله أولياءهم إلى حفظهم وملاحظتهم وخاصة عند أول الليل، فيقول صلى الله عليه وآله: «إذا كان جنح الليل [أي إذا أقبل ظلامه] فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم...»^(١) إلخ الحديث، والمعنى: لا تمنعوهم من الخروج بعد ذلك.

وفي صحيح البخاري^(٢) وغيره عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله جاء إلى بيت فاطمة وسأل عن الحسن، فانتظره عليه الصلاة والسلام، فأبطأ عليه حتى قال أنس: ظننت أن فاطمة تلبسه أو تغسله فجاء يشد — يعني يسرع — [فقال النبي صلى الله عليه وآله بيده هكذا، أي: مدها] حتى عانقه وقبله وقال: «اللهم إني أحبه وأحب من يحبه»، وفي صحيح مسلم^(٣) قال: «اللهم إني أحبه فأحب من يحبه».

اللهم إننا نحب سبطا نبيك وريحانتيه وسائر آلهم الكرام وصحبهم العظام، اللهم فاكتب لنا عفوك وحبك يا سميع الدعاء. وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٠)، ومسلم (رقم ٢٠١، ٢٠١٣) باختلاف.

(٢) (رقم ٢١١٢، ٥٨٨٤).

(٣) (رقم ٢٤٢١).

المصطفى عليه السلام يمازح يتيمة

روى الإمام مسلم في "صحيحه" ^(١) عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال: كانت عند أم سليم يتيمة — وهي أم أنس — فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: «أنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنك» فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: مالك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا علي رسول الله ﷺ أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا — أو قالت: قرني — فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها [أي تديره على رأسها وعنقها]، حتى لقيت رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: «مالك يا أم سليم؟» فقالت: يا نبي الله، أدعوت على يتيمتي؟ قال: «وما ذاك يا أم سليم؟» قالت: زعمت أنك دعوت ألا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها، قال: فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا أم سليم، أما تعلمين شرطي على ربي أبي اشتطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأئتما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة تقربه بها منه يوم القيامة».

وهذا الموقف فيه عدد من المسائل والفوائد:

أولاً: أم سليم هذه هي بنت ملحان بن خالد بن زيد الأنصارية الخزرجية، واسمها سهلة، وقيل: غير ذلك، واحدة من سادات النساء وفواضلهن، ومن المبشرات بالجنة، عرفت بالحصافة والسداد

(١) (رقم ٢٦٠٣) ورواه ابن حبان في "صحيحه" (٦٥١٤).

والرأي الرشيد، وهي أم أنس بن مالك، وزوجة أبي طلحة، لها قرابة مباشرة برسول الله ﷺ بالنسب أو الرضاع. فهو عليه الصلاة والسلام أحد محارمها^(١).

الثانية: أن هذا الدعاء الذي قاله النبي ﷺ على سبيل المداعبة والممازحة لتلك اليتيمة الصغيرة ليس مقصودا بذاته، وإنما هو مما جرت به عادة العرب كقوله: "تربت يمينك"^(٢) و "عقرى حلقى"^(٣) و "لا أشبع الله بطنك" ونحو ذلك، ولا يقصدون به حقيقة الدعاء وإرادة وقوعه، وإنما هي عادة غالبية العرب يصلون كلامهم بهذه الدعوات، ويجعلونها دعاما لكلامهم.

ومع ذلك خاف عليه الصلاة والسلام أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهورا وأجرا، مع أن ذلك كان يقع منه ﷺ في النادر من الأزمان^(٤).

وبهذا يتبين — وهذه المسألة الثالثة — أن ما يقع من كثير من الآباء والأمهات من الدعاء على أولادهم أمر منكر، لأن دعاءهم

(١) ينظر: "تهذيب الأسماء واللغات" (٣٦٣/٢)، و "شرح النووي لصحيح مسلم" (٥٧/١٣) و (١٠/١٦).

(٢) ثبت هذا اللفظ في حديث عائشة عندما قال لها رسول الله ﷺ: «انذني له، فإنه عمك تربت يمينك» أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٦)، ومسلم (رقم ١٤٤٥).

(٣) وثبت هذا اللفظ في حديث عائشة قالت: أراد النبي ﷺ أن ينفر، فرأى صفيية على باب حباتها كئيبة حزينة لأنها حاضت فقال: «عقرى حلقى» أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٧)، ومسلم (رقم ١٢١١).

(٤) ينظر: "شرح النووي لصحيح مسلم" (١٥٣/١٦)، و "المفهم" (٥٨٥/٦) للقرطبي.

ليس كدعاء النبي صلى الله عليه وآله ، من جهة أن النبي صلى الله عليه وآله جعل الله دعاءه على الناس — لو صدر — رحمة وطُهرَةً لهم، وهذه خصوصية له صلى الله عليه وآله دون غيره، ثم إن دعاء أولئك الناس ليس من قبيل كلام العرب الذي أشرنا لبعض أمثلته، لأن دعاء الوالدين الذي نسمعه هو بالموت العاجل والمصيبة الفادحة والداهية القاتلة، نسأل الله السلامة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» خرجه مسلم في "صحيحه" (١).

الرابعة: بيان ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله من التواضع وحسن الخلق، فهو عليه الصلاة والسلام لم يستكثر مازحة تلك الطفلة الصغيرة ومداعبتها بشيء من الكلام، وقد كان عليه الصلاة والسلام يرى هؤلاء الأطفال اليتامى والربائب في بيوته عند أزواجه، ومن أولئك هذه الطفلة اليتيمة، وكان قد رآها صغيرة، ثم غابت عنه مرة فراها قد طالت وعُبلت — كما يقول الحافظ القرطبي، ومعنى عبلت أي ضخمت وبيضت — فتعجب عليه الصلاة والسلام من سرعة ذلك، فقال لها ذلك القول متعجبا، ممازحا.

وقد قال بعض أهل العلم: إن قوله صلى الله عليه وآله : «لا كبر سنك» بمعنى ألا يكبر سنها كبرا تعود به إلى أرذل العمر (٢)، فتبقى على قوتها

(١) (رقم ٣٠٠٩).

(٢) ينظر: "المفهم" (٥٥٦/٦).

ونشاطها مدة حياتها.

وهذا شبيه بما كان مع طفلة صغيرة يقال لها أم خالد، وكانت قد لبثت في الحبشة زمنا أثناء الهجرة، فعرفت شيئا من كلامهم، وهي بنت خالد بن سعيد — رضي الله عنه — حيث جاءت مع أبيها إلى النبي صلى الله عليه وآله، وكانت لابسة قميصا أصفر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «سنه، سنه»، قال الراوي: ومعناها بالحبشية: حسنة^(١).

ثم همت تلك الطفلة أن تعبت بخاتم النبوة الذي بين كتفي النبي صلى الله عليه وآله، فزجرها أبوها، فقال عليه الصلاة والسلام: «دعها» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله، بعد أن كساها ثوبا جديدا — كما في الرواية —: «أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي»، فبقي ذلك الثوب أمدا طويلا، وعمرت تلك الطفلة عمرا طويلا ببركة دعائه صلى الله عليه وآله.

والحديث رواه البخاري في كتاب الأدب^(٢) من صحيحه وبوب عليه فقال: باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبلها أو مازحها.

ثم قف الآن عند هذا الأدب العالي والخلق الكريم، الذي يرويه جابر بن سمرة — رضي الله عنه — قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله صلاة الأولى [يعني الظهر]، ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم، واحدا واحدا، قال:

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٧١).

(٢) (رقم ٥٩٩٣).

وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من
جؤنة عطار، خرج الإمام مسلم في "صحيحه" ^(١).

قال الإمام النووي — رحمه الله — : وفي مسحه عليه السلام الصبيان
بيان حسن خلقه ورحمته للأطفال وملاطفتهم، وفيه بيان طيب ريحه
عليه السلام ، وهو ما أكرمه الله تعالى.

قال العلماء: كانت هذه الريح الطيبة صفته عليه السلام ، وإن لم يمس
طيبا، ومع هذا فكان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات مبالغة في
طيب ريحه لملاقاة الملائكة وأخذ الوحي الكريم ومجالسة
المسلمين. اهـ ^(٢).

المسألة الخامسة: في الموقف الذي صدرنا به هذا الموقف: بيان
ما كانت تزخر به بيوت الصحابة من رعاية اليتامى، فقد رأينا أن
تلك اليتيمة التي مازحها رسول الله عليه السلام كانت في بيت أم سلمة
وكانت شديدة العناية بها، وهكذا كانت بيوت أزواج النبي عليه السلام ،
فقد ثبت أن عائشة — رضي الله عنها — كانت في حجرها أكثر
من يتيم ترعاه ^(٣).

وهكذا بيت زينب بنت خزيمة، فقد كان لكثرة إحسانها تعرف
بأم المساكين.

(١) (رقم ٢٣٢٩). وجؤنة العطار هي ما يضع فيه الطيب ويختزنه، فتكون رائحته عبقة
متميزة.

(٢) "شرح النووي لصحيح مسلم" (٨٥/١٥).

(٣) ينظر: "الموطأ" (٢٥١/١)، "سنن البيهقي" (١٠٨/٤٠).

وهذه الرعاية لليتامى في العصر النبوي هي عمل بترغيب المصطفى عليه السلام في هذا الباب، فهو القائل: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى. رواه البخاري ^(١)، قال ابن بطال: "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي عليه السلام في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك".

وكفالة اليتيم تكون برعايته من جهة الإنفاق وتهيئة الطعام والكساء والدواء وهكذا التربية والتعليم، وفي زماننا هذا اشتدت حاجة اليتامى لقلة الالتفات إليهم، فحق على أصحاب الإحسان أن يقفوا على أحوالهم من خلال جمعيات البر، وهكذا اليتامى في بلاد المسلمين الأخرى الذين صاروا يستجدون أمم الكفار لتخلي كثير من المسلمين عنهم.

والوقوف عليهم يكون من خلال هيئات جمع التبرعات وهيئة الإغاثة ومؤسسة الحرمين وغير ذلك، وهذه المؤسسات الخيرية مهياً الوصول إليها بحمد الله في جميع أرجاء بلاد الحرمين، زادها الله عزاً وتمكيناً، وفي عموم بلاد المسلمين إذ لا تخلو من أهل المعروف والإحسان بحمد الله ومنته.

وفق الله الجميع لما فيه الخير.

* * *

(١) (رقم ٥٣٠٤، ٦٠٠٥).

الفهرس

٥	مقدمة
٧	صفحات من طفولة المعصوم <small>عليه السلام</small>
٧	بشارة الأنبياء ببعثة أفضلهم:
١٠	المولد الشريف ومقدماته:
٢٠	رعيه الغنم:
٢٣	مراضع المصطفى <small>عليه السلام</small> وحواضنه
٢٣	تاريخ وذكريات
٣١	الرعاية النبوية للطفولة
٤٤	المصطفى <small>عليه السلام</small> يمازح يتيمة
٥٠	الفهرس

* * *